« نفسلوجية » البخل والسخاء

يا ليتني كنت بخيلا !

بقلم الاستاذ صدرالدين احمد

نعم ...

يا ليتني كنت بخيلا فأستطيع ان أدّخر لمعشر أبنائي مايصونهم بعدي من مظان الفقر واحتمالات النكس والاجرام وأشهد ان البخل المتسق فضيلة زكية بقدر عائدة المحقق على بعض المجتمع في الغد المجهول .. وبقدر عائده على سائر الذين استمسكوا به من دون البذخ الطائش الموبق ـ اذ كانت الموبقات عند ارباب السخاء هي اكثر شيوعاً واتساعاً منها عند ارباب البخل أجمعين .

والرجل البخيل سعيد بخله إن لم يكن أسعد من السخي بسخائه ، فهو على الأقل لايتوجس كل مخافة من غوائل العوز فضلا عن ارتياحه الى يأس البرايا من نواله وطلاقة يديه . اما السخي الجواد فلن يجهل بحال أن دؤوبه في البذل والانفاق دؤوب ايضاً في طرد الثراء الذي لابد ان يفرطه بعدئذ الى قاع صفصف ككثير غيره سبقوه ، فهو مع ارتياحه المؤقت الى صنائعه يتوجس مخافة قائمة في نفسه من العاقبة المختبئة له بالمرصاد ، وما يدري متى يحيق به الضيق والنكس والدمار .. ويا ويله اذا ما حاق به الضيق والنكس والدمار .

لقد كان السخاء قديماً أشبه بالضرورة الطبيعية التي تحمل من لايملك على من لايبخل فتدفع عنها معاً أسباب العسر والفناء ، وتصقل منها الطباع الجافية بحكم الاحسان والوفاء .. اما اليوم وقد تهيأت منادح شتى للعيش ، وتوافرت مسالك منوعة للكسب والارتزاق فلم يعد حينئذ أي ضرورة لتمجيد الكرم وتأييده فانه سيكون حقلا خصباً لازدهار الخمول والتواكل واعتقال المواهب عن النضج والانتاج .

ليس السخاء في جملته وتفصيله إلا خصلة اعتيادية يألفها المرء عامداً الى مطالب مقصودة كالطموح الى سيطرة او الطمع في منفعة او التكفير عن جناية او التغطية على نقص مفتضح وما يكون الى هذه المعالم بسبيل . وحسبي دليلا على ما ازعم سيرة معن بن زائدة واللورد فورد ومسيو نوبل وعبد الله ابن جدعان وعبد الله بن جعفر ومن جرى في مضمارهم .. ومتى كان الأمر الواقع هو هذا على التحقيق فهل الجواد الكريم إلا شخص مكابر أو متاجر او مجرم او مصانع ؟ ..

قد يصعب على نفر من الناس ان يعترفوا اليوم بهذه الحقيقة الناهضة المدهشة ، وقد يتعذر عليهم قبولها في ثقة واطمئنان ، بل وقد يسوؤهم كذلك ان يؤمنوا بها طوعاً من غيرامتعاض .. ولكن على كل حال سوف يضطرون اضطراراً الى قبولها والاعتراف بصدقها وصوابها عما قريب أو بعيد .

وما بال الناس يحقدون على الرجل البخيل ؟

يغلب على مراجع ظني ان هؤلاء الحاقدين كلهم أغرار ساذجون لايفقهون بالمرة انهم حين يحقدون على الرجل البخيل إنما يفضحون قصورهم عن بلوغ مركزه ، أو يكشفون عن رغباتهم في اغتصاب ثروته بطريقة أثيمة أو غير مشروعة ، فلو أنهم كانوا على ذروة عالية من الحصافة والثقافة لاسترشدوا به استرشاداً الى مايرفعهم الى مثل مركزه فيريحون انفسهم من التحرّق الذي ما منه لهم غناء .

أنا لا أدعو الى البخل ان يحل تماماً في محل السخاء فيقضي على معاني العطف والاغاثة وصلة الأرحام ، ولا أدعو الى نبذ السخاء أن يقوم على الاشتراكية الاسلامية فيسي حتى الى شعائر الدين . وانما أدعو الى جعل البخل متسقاً نوعا من غير تفريط كما أدعو الى جعل السخاء معتدلا نوعا من غير افراط .. وهل تستقيم موازين الحياة إلا بتكافؤ الافراط والتفريط ؟.

يا ويح نفسي انني اتوق الى البخل وأتمناه كأنني أملك اموالا خطيرة أخشى عليها أن تبيد ، وكأنني شيخ متزوج وعندي أولاد وأحفاد ينبغي ان ارصد لمستقبلهم رصيداً حافلا برقم ذهبي كبير ...

ولكن ، ما أتعسني حين أتصوّر ان المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، وما اتعسني إذ أراني مرغماً على التصريح بأنني اغرب مكتمل ، ولست أملك إلا ما يمسكني ان أتقهقر الى مخاوم الضير والخواء .

النجف : صدرالدين احمد